

مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (تأسيسه، مرجعيته، أهدافه)
Theater of the Association of Algerian Muslim Scholars
(establishment, references, objectives)

عبد الغني لبيبات¹

جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريرج

abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

تاريخ الوصول 2022/12/23 القبول 2023/01/29 النشر على الخط 2023/03/15

Received 23/12/2022 Accepted 29/01/2023 Published online 15/03/2023

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم صورة عن مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، متبّعة تطوره وفق مسار كرونولوجي، منذ صدور أول عمل مسرحي لأحد أعلام الجمعية (محمد العيد آل خليفة في مسرحيته الشعرية بلال بن رباح) وصولاً إلى تطوره واتساع وثره تجارب هذا المسرح، وانتهاء بتوقفه بعد انطلاق مسرح النضال التابع لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، كما تقف الدراسة بشيء من التفصيل عند أهم المرجعيات التي استند عليها هذا المسرح متمثلة في المرجع التاريخي بمصادره الثلاث: المصدر العربي الإسلامي، المصدر المغاربي، والمصدر الأجنبي، يضاف إلى ذلك المرجع الاجتماعي الذي عمد من خلاله مسرحيو الجمعية إلى التصدي لمختلف الآفات التي كانت تنخر المجتمع الجزائري في الصميم، فكانت هذه التجارب بمثابة الدواء لمثل تلك الأدواء الاجتماعية، كما أبرزت دراستنا أهم الأهداف التي رامها هذا المسرح، والتي كانت في مجملها تسعى إلى إحياء الشخصية الجزائرية ببعديها العربي والإسلامي، وإيقاظ الشعور القومي العربي باستلهاهم شخصيات تاريخية، إضافة إلى المحافظة على مقومات الأمة.

الكلمات المفتاحية: مسرح، مرجعيات، بعد تاريخي، بعد إصلاحي، بعد تربوي.

Abstract:

This study seeks to provide an image of the Algerian Muslim Scholars Association theater, Tracing its evolution according to a chronological path, Since the issuance of the first theatrical work of one of the association's flags «Muhammad Al-Eid Al Khalifa in his poetic play Bilal bin Rabah» Down to the development, breadth and richness of the experiences of this theater, And ending with its cessation after the start of the struggle theater of the Algerian National Liberation Front, The study also stands in some detail at the most important references on which this theater was based Represented in the historical reference with its three sources: the Arab-Islamic source, the Maghreb source, and the foreign source, In addition to that, the social reference through which the playwrights of the association sought to address the various pests that were gnawing at the heart of Algerian society, These experiences were the medicine for such social ills, Our study also highlighted the most important goals pursued by this theater, Which, in its entirety, aimed at reviving the Algerian personality in its Arab and Islamic dimensions, And awakening the Arab national feeling by drawing inspiration from historical figures, In addition to preserving the nation's foundations.

Keywords: Theatre, References, Historical dimension, Reformist dimension, Educational dimension.

¹ المؤلف المرسل: عبد الغني لبيبات البريد الإلكتروني: abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

1. مقدمة:

كان مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حلقة مهمة في مسار ظهور وتطور المسرح الجزائري بشكل عام، غير أن لهذا المسرح خصوصياته وفردته، التي ميّزته منذ ظهور التجارب الأولى له، حيث ولد هذا المسرح إصلاحياً تربوياً يتماشى مع الأهداف والمرامي التي سطرّها جمعية العلماء المسلمين منذ ظهورها، وبقي كذلك مسرحاً تربوياً يقوم بتحضير الفرد الجزائري معنوياً والسموّ بكيانه وتخليصه من الشوائب حتى يصبح مهياً لطرده المحتلّ الفرنسي من أرضه.

ولأنّه لا نكاد نعثر على دراسة شاملة تخصّصت في هذا المسرح أو قامت بالوقوف عند نماذجه الرائدة، أو نفض الغبار عن تجاربه الكثيرة المدفونة إلاّ النزر اليسير، فإننا سعينا من خلال هذه الدراسة إلى محاولة التعريف بهذا المسرح وتتبع المسار الزمني لتطوره، مع ذكر العديد من أعلامه وتسمية نماذجهم، متطرقين إلى مرجعيّاته وأهدافه بشيء من التفصيل، لعلّ دراستنا تفتح أبواباً موصدة وتلفت النظر إلى أعمال رائدة في زمانها جديدة بالالتفات إليها في زماننا.

اعتمدنا في دراستنا هذه التي جاءت نظرية منهاجاً استقصائياً تاريخياً حاولنا فيه تتبع أوليات هذا المسرح والانتقال زمنياً بين التجارب من السنّة الأولى لظهوره وإلى غاية توقّفه ليفسح المجال إلى نوع جديد هو مسرح النضال الذي قادته الحركة الوطنيّة الجزائرية، وقد احتوى بحثنا ثلاث عناصر جاءت كالتالي: التأسيس، المرجعيّات (أ: المرجع التاريخي، وضمّ ثلاثة مصادر هي: المصدر العربي الإسلامي، المصدر المغاربي، المصدر الأجنبي، ب: المرجع الاجتماعي)، الأهداف.

اتكأت دراستنا على جملة من المصادر والمراجع يأتي في مقدّمها كتاب: "تاريخ الجزائر الثّقافي" للدكتور أبي القاسم سعد الله في جزئه العاشر، إضافة إلى أطروحة دكتوراه بعنوان: "توظيف التراث في المسرح الجزائري" للدكتور أحسن تليلاي، كما استعنا بمقال مهمّ للدكتور دين الهناني أحمد بعنوان: "المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحياً".

ليطرح هذا البحث جملة تساؤلات:

- كيف تمّ تأسيس مسرح خاص بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟ وما طبيعته؟
- ماهي مرجعيّات هذا المسرح ومصادره التي استند إليها؟
- ما هي أهداف ومرامي هذا المسرح؟

2. تأسيس مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

اصطبغ مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ بداياته بصبغة إصلاحية، فكان مسرحاً مقاوماً في لغته وأفكاره ومراميه، وعلى الرّغم من أنّه كان متفرداً نوعاً ما في غاياته ومضامينه وطريقة أدائه، إلاّ أنّه في شكله العام كان مثل المسرح الجزائري عموماً في أولياته، حيثُ "تبّنى في شكله ومحتواه قضية البحث عن الذات الجزائرية، بمواجهة هذا الآخر الذي سعى إلى اجتثاثها وتغييبها، وضمن إطار البحث عن الذات الجزائرية من أجل استعادتها".¹

¹ أحسن تليلاي، توظيف التراث في المسرح الجزائري، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري - قسنطينة، -2010/2009، ص 39.

ترجع أوليات مسرح الجمعية إلى سنة 1938 حين أُلّف محمد العيد آل خليفة مسرحيته الشعرية "بلال بن رباح" وتعتبر هذه المسرحية "النواة الأولى للمسرحية التاريخية التي استلهمت التاريخ العربي الإسلامي، كما ظهر من خلال عناونها، وهي محاولة ترمي إلى تجسيد الموقف البطولي الذي تجلّى به الصّحابي بلال -رضي الله عنه- أمام جلاّديه".¹

وقد نالت هذه المسرحية اهتماما كبيرا، لأنّها شكّلت محطة مفصليّة حاسمة في مسار المسرح الجزائري، ولقيت إقبالا جماهيريا كبيرا عليها، فهي برأي الدكتور أبي العيد دودو تعتبر "نقطة تحوّل في تاريخ المسرح الجزائري، لا لأنّها أوّل عمل شعري متكامل في هذا المجال، وإنّما لأنّها عبّرت عن اتجاه جديد تجلّى في مضمونها التاريخي".²

وبعد هذه المسرحية الرائدة شهدت الحركة المسرحية في الجزائر ركودا بسبب الحرب العالمية الثانية وتداعياتها المختلفة، لكنّها سرعان ما عادت من جديد واستأنفت نشاطها بقوة إذ "اقتحم عالم المسرح عدد كبير من الأدباء الجزائريين الذين لم يكونوا من المتخصصين فيه، حيث بلغ عددهم قرابة المائة كاتب، قدّموا حوالي مائة واثنى عشر مسرحيّة، يغلب على كتاباتهم الطابع الإصلاحية المنبثق من مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما أنّ جلّها يتّسم بسمة تاريخيّة، حيث يلقي المؤلّف الضوء على فترة تاريخيّة أو يستدعي شخصيّة مشهورة من التراث التاريخي، فلم يكن الاختيار عفويًا، بل جاء لغاية سياسيّة إصلاحيّة، تُخدم مصلحة الجزائر أولًا، ومبادئ الحركة الإصلاحية بالدرجة الثانية".³

ومن بين أهمّ رجال الإصلاح الذين حازوا قصب السبق في التّأليف المسرحي ذي الطابع الإصلاحية تحت جناح الجمعية نجد الأديب محمد الصّالح رمضان، إذ جاءت مسرحيته "الناشئة المهاجرة" مباشرة بعد فترة الرّكود التي عرفتها الساحة المسرحيّة، ألّفها سنة 1947، ويذكر مرتاض أنّها: "مثّلت لأوّل مرّة بمدرسة دار الحديث بتلمسان، في العقد الخامس من القرن العشرين، أمّا طبعها فقد تمّ سنة 1949 بالمدينة نفسها".⁴

وتبدو من عناونها الغاية التربوية الإصلاحية لمؤلّفها، وهي مسرحيّة تتألّف من "سبعة مشاهد متسلسلة، تدور كلّها في مكة المكرمة، وتشخّص بعض المواقف المتصلة بالهجرة من مكة إلى المدينة المنورة، وموقف المشركين من هذه الهجرة، التي كانت نقلة نوعية في مسار الدّعوة المحمدية".⁵

وهي مسرحية تنطوي على قيم تربوية ودينية بارزة شأنها في ذلك شأن بقيّة مسرحيات رجال الجمعية، وبما أنّها كانت موجّهة للأطفال الصّغار، فإنّ غاية الكاتب من ورائها هو "إطلاعهم على بعض الجوانب المشرقة من التاريخ الإسلامي، وتعليمهم أهميّة التّضحية في سبيل الدّفاع عن المبادئ العظيمة، والعقيدة، والصّبر على الأذى، وتحملّه من أجل تبليغ الرّسالة".⁶

¹ دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيًا، مجلّة الدراسات الثّقافية واللغوية والفنية، المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، ألمانيا، العدد 4، جانفي 2019، ص 267.

² المرجع نفسه، ص 267. نقلا عن: أبي العيد دودو، مجلة القيس الجزائرية، ماي 1969، ص 97.

³ المرجع نفسه، ص 267. نقلا عن: أحمد بيوض، المسرح الجزائري 1926-1989، ص 61.

⁴ أحسن تليلاني، توظيف التراث في المسرح الجزائري، ص 125، نقلا عن: عبد الملك مرتاض، فنون الشرّ الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص 226.

⁵ المرجع نفسه، ص 125.

⁶ بن داود أحمد، دور المسرح الجزائري في المقاومة الثّقافية للاستعمار الفرنسي 1926-1954، رسالة ماجستير، كليّة العلوم الإنسانية والحضارة الإسلاميّة، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2008-2009، ص 29.

فمسرّح الجمعية منذ بدايته بمهاته المسرحيات الرائدة كان مصطبعا بالصبغة الإصلاحية، التي راح يستنبتها في مدراس الجمعية، فهو مسرّح مدرسيّ إصلاحي بكل ما تعنيه هاتان الكلمتان من معنى، يحاول قد الإمكان أن يحقّق الغايات الكبرى التي سطرها رجال الجمعية في الجانب الثقافي والأدبي، إيماناً منهم بقوة وجبروت الكلمة المعبرة في الدفاع عن كيان الأمة، لاسيما وإن كانت هاته الكلمة مدوّية على خشبة المسرح، مقترنة بالأداء والفعل المسرحي، ولذلك راحت المسرحيات تتوالى الواحدة تلو الأخرى، فوجدنا محمد الصالح رمضان يضيف في نفس السنة -1947- مسرحية أخرى " استمدّ أحداثها من تاريخ شاعرة مخضمة - الخنساء - كما أننا نجد عرضاً آخر ألفه " أحمد رضا حوحو" في مدينة قسنطينة، استمدّ أحداثه من كتاب "ألف ليلة وليلة" بعنوان "هارون الرّشيد وأبو الحسن التميمي" سنة 1947".¹

وعموما فقد عرفت " الفترة ما بين 1948-1950 نشاطاً مسرحياً مكثفاً يخضع لمقاييس الحركة الإصلاحية (اللغة العربية كأداة، الأحداث والشخصيات التاريخية كمضمون) نبدأها بالعرضين اللذين ألفهما "محمد الصالح رمضان" في بداية 1948 وهما "حليمة مرضعة النبي" و"طارق بن زياد" لكنّ النّصين مفقودان، كما ذكر الباحث عبد الملك مرتاض، ولم يبق منهما إلا مشهد واحد من المسرحية الأولى...".²

و بالحديث عن مقاييس الحركة الإصلاحية في ميدان التأليف المسرحي فإنّه لا بدّ من الإشارة إلى كلام "أرليت روث" الذي بيّن من خلاله أنّ "رجال الإصلاح وضعوا شرطين، لجعل المسرح من وسائل الإصلاح، بعد أن تحرّروا نفسياً من قيود شتى، ولاسيما التي كانت تعدّ المسرح من الحرف المنحطّة، الشرط الأول: هو استعمال اللغة العربية الفصحى في العروض والحوارات المسرحية. والشرط الثاني: هو أن يعبر المسرح عن تاريخ الأمة الإسلامية ويشيد ببطولات عظمائها".³

ففي سنة 1948 كتب أحمد توفيق المدني مسرحية تاريخية بعنوان "حنبل" عرفت نجاحاً كبيراً، حيث عرضت في الجزائر العاصمة في السنة نفسها، وأعيد عرضها عدّة مرّات منها عرض للنساء وحدهنّ، بالإضافة إلى "توفيق المدني" جرّب المؤرخ "عبد الرحمن الجليلي" حظّه في كتابة المسرحية التاريخية، فألف مسرحيتين "المولد - الهجرة، تدوران حول سيرة النبي - صلّى الله عليه وسلّم يوم مولده ويوم هجرته. طبعت الأولى سنة 1949، وقامت بتمثيلها فرقة "محي الدين باشرزي" سنة 1951".⁴

أمّا إذا انتقلنا إلى الشّرق الجزائري فإنّنا سنجد أحمد رضا حوحو الذي مارس المسرح كتابة وتمثيلاً وكان ذلك مبكراً، فقد أقدم منذ سنة " 1939 على كتابة أول محاولاته المسرحية فنشر في نفس المجلة - المنهل السّعودية - وعلى التوالي "أدباء المظهر" و "صناعة البرامكة" و "الواهم".⁵

و في هذه المرحلة كان توظيف المسرحية وإبداعها براغماتياً من طرف أعلام الجمعية، ذلك أنّهم رسموا أهدافاً ومشاريع إيقاظ وتوعية تربوية، جعلوا من المسرح إحدى وسائلهم لتحقيقها، حيث " كانت جمعية العلماء والمدارس الإصلاحية يقيمون مسرحيات

¹ دين الهناي أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحياً، ص 267-268.

² المرجع نفسه، ص 268. نقلاً عن: عبد الملك مرتاض، فنون الشّعر الأدبي في الجزائر، ص 229.

³ دين الهناي أحمد، المرجع السابق، ص 267.

⁴ المرجع نفسه، ص 268.

⁵ أحمد منور، مسرح أحمد رضا حوحو (دراسة أدبية تحليلية مقارنة)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1989، ص 58.

لنشر الدعوة الإصلاحية والمحافظة على القيم الدينية والأخلاقية والثقافية، وكانوا يستعملون المسرحيات كسلاح من أسلحة الإيقاظ الشعبي¹.

وبعد الخمسينات انتقل مسرح الجمعية نقلة نوعية إذ مال إلى الاحتراف حيث "تكوّنت فرق مسرحية تمارس نشاطها بعيدا عن المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء، فبدأ أعضاءها بالاحتكاك بالمسرح المصري عن طريق البعثات للتدريب على التمثيل، والإخراج المسرحيين، وبعد رجوع فرقة "هواة التمثيل العربي" من مصر قدّموا عدّة عروض في مختلف المسارح الوطنية ومسارح الدول المجاورة كتونس وليبيا، ومن جملة ما عرضوا حسب ما جاء في مذكرات مؤسس الفرقة "محمد الطاهر فضلاء" عنتر بن شداد، صلاح الدين الأيوبي، أبو الطيب المتنبي، ومسرحية الصحراء"².

فمسرحية الصحراء مثلا لقيت احتفاء كبيرا واهتماما لدى الصحافة ولفتت انتباه الكثير من النقاد وهي على حدّ تعبير أبي القاسم سعد الله " رواية تمثّل كفاح ليبيا ضدّ إيطاليا . وقد قام فيها محمد الطاهر فضلاء بالدور الرئيسي وامتدح على أدائه الجيّد. وقد سبق له أن مثّل رواية أخرى بنجاح وهي (ليلى بنت الكرامة) و رواية (بطل قريش) التي تحمل رسائل للشعب عن تراثه وانتماؤه. كما سبق له أن مثّل المولد للجيلالي"³.

وهكذا وجدنا مسرح الجمعية يتطوّر في الممارسة والأداء وينتقل من الفضاء المدرسي المحصور إلى الفضاء الشعبي العام المفتوح ، بل أكثر من ذلك إلى الفضاء الدولي الأكثر انفتاحا، وهو في كل ذلك لا يستغني عن نزعته الإصلاحية المتأتمية من ثوابت الجمعية التي لا تريم ولا تحيد عنها، إلى أن تحبو جذوته فاسحا المجال إلى مسرح التّضال الذي فرضته الظروف السياسية وهيب الثورة الجزائرية المندلعة في مطلع 1954، وهو مسرح كانت تقوده " فرقة جبهة التحري الوطنية التي أخضعت كل المسرحيين من كتّاب وممثلين لخدمة القضية الكبرى، وهي تحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي"⁴.

هذه أهمّ المحطات التي مرّ بها مسرح الجمعية منذ نشأته الأولى إلى خفوت بريقه مع بداية ثورة التحرير الكبرى، وقد أشرنا إلى أبرز أعلامه من شيوخ الجمعية وتلاميذهم وإلى أهمّ مدوناتهم، ووجدنا أنّه مسرح إصلاحي مدرسي، يغرف من المبادئ الكبرى للجمعية وأهدافها ومرجعياتها التي سنينها في العنصر اللاحق .

3. مرجعيّاته:

يعدّ المسرح من أهمّ الفنون الجميلة التي تهذب النّفس، وتؤدّي المسرحية أمام جمهور المشاهدين على خشبة، تمزج بين الكلمة وحركات الجسد، وتستهدف من خلال تأديتها غايات مختلفة، وقد كانت الغاية التربوية الإصلاحية أهمّ غايات مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ انطلاقاته الفعلية سنة 1938، وتجلّت هذه الغاية من خلال مرجعيّاته، فقد لجأ أعلام المسرح الإصلاحي إلى مصدرين ومرجعيين أساسيين استلهموا من خلالهما مواضيع أعمالهم، وكوّسوا من خلالهما أهدافهم ومراميمهم التربوية فكان هذان المرجعان كالآتي:

¹ مباركة مسعودي، المسرح الجزائري: التأسيس والزيادة، مجلّة البدر، المجلد 9، العدد 12، 2017، ص 691.

² دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيا، ص 268.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ج 10، طبعة خاصة، 2007، ص 332.

⁴ دين الهناني أحمد، المرجع السابق، ص 269.

1.3 المرجع التاريخي:

ويعدّ التاريخ أهمّ مصدر استقى منهم مسرحيو الجمعية أعمالهم، ويظهر ذلك من خلال عناوين كثيرة وشّحوها بها منجزاتهم، سواء كانت تحمل أسماء شخصيات تاريخية أو أحداثا تاريخية كبرى، في التاريخ العربي والإسلامي وحتى العالمي " وليس صعبا أو مستحيلا أن يكون التاريخ إلهاما وتجربة ومصدرا لعمل مسرحي ما، كما يحدث مع التجربة الواقعية المعيشة، ولعلّ الماضي يكون مناسباً أكثر لممارسة العمل الأدبي المسرحي، كلّما كان أكثر طواعية بين يدي المؤلف، بسبب أنّ أحداث الماضي قد تبلورت، على مرّ الأيام فاستطاعت أن تنزع عنها الملابس والتفاصيل التي ليست بذوي بال، من حيث الدلالات التي يتصيّدها الكاتب للوصول إلى الهدف، الذي يرمي إليه من عمله الفني".¹

ولا مناص من لجوء كتاب مسرح الجمعية إلى التاريخ واستلهاهم شخصياته التراثية الناصعة في ميادين البطولة والنضال فكرّسوا وجودها في منجزاتهم، فقد وجدناهم منذ تأسيس الجمعية مستميتين في الدفاع عن هوية الأمة التي أراد العدو مسحها بأفانين مختلفة من التحريف والطمس، فكان التاريخ أبرز ركائزهم، يقول الأستاذ مصطفى رمضاني: " لقد فطن رواد المسرح العربي منذ البداية إلى غربة الشّكل المسرحي الغربي، كما فطنوا إلى أنّ المستعمر يسعى إلى فرض ثقافته لطمس كلّ ثقافة وطنيّة، لذلك لجأوا إلى البحث عن هويتهم وتمييزهم، فكان التراث هو المصدر الشّامل الذي وجدوا فيه ضالّتهم، لأنّه يمثّل مقومات الأمة واستمرارية تميّزها".²

ولذلك وجدناهم رجعوا إلى التاريخ وفتشوا بين دقّات كتبه عن المصايح المشرقة التي بإمكانها أن تنير ظلام ليلهم الدّامس الذي أشاعه الاستعمار فاستلهموا هاته الشخصيات ورسّموها في مسرحهم الإصلاحي المقاوم بطرائق فنيّة مشرقة، فأعادوا بذلك " بعث التاريخ الأصيل، سواء كان عربيا إسلاميا أو مغربيا أمازيغيا إفريقيّا، والتعريف بشخصياته ليكونا قدوة للأجيال، فجنّدت لهذه الغاية أقالمها من أدباء وشعراء وفنانين ومسرحيين، فكان العمل على جبهتين: جبهة تحيي التاريخ الجزائري بطريقة علمية أكاديمية بعيدة عن المصادر الغربيّة وتشويهات المستشرقين، وهذا ما قام به المؤرّخ مبارك الميلي في كتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، وعبد الرحمن الجيلالي في مؤلّفه "تاريخ الجزائر العام"، والجبهة الثانية وظّفت التاريخ العربي الإسلامي والمغاربي في الأنشطة الثقافية ومنها المسرح".³

وقد كان الاشتغال على الجانب التاريخي في المسرح الإصلاحي مجالا خصبا فتعدّدت بذلك " المحاور التي عبّر من خلالها كتاب الجمعية في مسرحياتهم التاريخيّة، فهناك المحور الديني الذي عمل أصحابه على إثارة العقائد (المولد النبوي الشّريف والمولد والخنساء وبلال)، وكذلك المحور التاريخي العاطفي الذي جمعوا من خلاله بين التاريخ والعاطفة (ملكة غرناطة وصنيعة البرامكة)، وآخرون لجأوا إلى الصّراعات الموجودة فيه بين القوى الظالمة والشّعوب المظلومة المكافحة (حنبعل وعبد الحميد بن باديس وأوثان الاستعمار)، وكلّ هذا من أجل توصيل أفكارهم للمتلقّي والتأثير فيه...."⁴

وقد تعدّدت المصادر التاريخية التي استمدّت منها المسرحية التاريخية وجودها عند الإصلاحيين، ويمكن أن نخصرها في ثلاث مصادر أساسية:

¹ أحسن تليلاني، توظيف التراث في المسرح الجزائري، ص45.

² جميل حمداوي، توظيف التراث في المسرح العربي، دار التّرف للّطبع والنّشر الإلكتروني، الناظور - تطوان، المملكة المغربية، ط1، 2019، ص23.

³ دين الهناي أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيا، ص266-267.

⁴ سميرة بن جامع، التّجربة المسرحيّة عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 1، 2020/2019، ص195.

1.1.3 المصدر العربي الإسلامي:

وهو من أهم المصادر، ذلك أنّ التاريخ العربي الإسلامي يحفظ لنا الكثير من الدروس والعبر في طياته، لشخصيات كانت علامات فارقة في مسار التاريخ، وبإمكانها أن تصير رموزاً ومرجعاً يحتذى به على مرّ العصور ولذلك " اتجه بعض الكتاب الجزائريين في مجال المسرح إلى التاريخ العربي الإسلامي لأنّه ثريّ بالبطولات، مليء بالمواقف الجريئة للملوك والأمراء والقادة والشعراء، سواء ما كان من العصر الجاهلي أو الإسلامي، يستلهمون المادّة الأساسيّة لإحياء الأمل في النفوس الضعيفة، فكان الأبطال المختارون نماذج تمثّل الشجاعة والأنفة والجهد والصبر وغيرها من المكارم العربيّة..."¹

وفي هذا المجال يمكن ذكر العديد من العناوين، ولعلّ أبرزها مسرحية بلال بن رباح لمحمد العيد آل خليفة، هاته المسرحية الرائدة التي رسم فيها كاتبها شخصيّة هذا الصّحابي في صبرها وتحملها للتعذيب وثباتها على كلمة الحق برغم المعاناة، وما تحمله هذه الشخصية المسرحية من دلالة رمزية عن معاناة الجزائريين تحت وطأة الاستعمار الغاشم وصبرهم على شتى أنواع التنكيل فداء للوطن، ويمكن الإشارة إلى أعمال أخرى كثيرة مثل: " الخنساء التي ترمز إلى الصبر والتضحية، وصلاح الدين الأيوبي الذي يرمز إلى الجهاد والعفة والتسامح والثبات على الحق، وطارق بن زياد الذي يوحي اسمه بالصمود وعدم اليأس، والمواجهة رغم قلّة العدد، وعنترة بن شدّاد الذي ارتبط اسمه بالشجاعة والدفاع عن الحرّيّة".²

2.1.3 المصدر المغربي:

لم يكن تاريخ المغرب العربي بمعزل عن مضامين المسرحيات التاريخية الإصلاحية، إذ لا يمكن عزل الأدب عموماً عن البيئة التاريخية التي ولد فيها، ولأنّ التاريخ المغربي بدوره حافل برموز تاريخية تحمل معاني البطولة والنضال " حاول بعض الكتاب الجزائريين في المسرح إحياء تاريخ المنطقة المغربيّة، وتعريف المتفرّج الجزائري بالشخصيات التاريخيّة لهذه المنطقة التي يجهل عنها الكثير، نظراً لطمس الحقيقة من قبل المستعمر من جهة، وتزييفها من جهة أخرى".³

من أشهر الكتاب الذين استحضروا شخصيات من التاريخ المغربي القديم، تحمل معاني الكفاح والبطولة هو أحمد توفيق المدني في مسرحيته الشهيرة " حنبلع" التي كتبها سنة 1948، فهي مسرحية ترسم صورة وتحكي سيرة عن هذا القائد العظيم الذي حقق انتصارات على روما وكبح مطامعها بشجاعة نادرة، فهي تلقي الضوء على فترة تاريخية امتازت بصراع بين القرطاجيين وهم سكان تونس القديم، وبين روما التي كانت تمثّل إحدى القوتين الكبريتين في التاريخ قبل الإسلام، كما كانت قرطاجنة تمثّل قوّة الحضارة والتقدم العمراني، فحاولت روما إخضاعها بالقوّة حتّى انتهى الأمر بحرق هذه المدينة العظيمة".⁴

¹ دين الهناني أحمد، المرجع السابق، ص 270.

² المرجع نفسه، ص 270.

³ المرجع نفسه، ص 270.

⁴ سميرة بن جامع، التجربة المسرحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 34، نقلا عن: عبد الله الركبي، تطور النشر الحديث 1830-1974، ص 221.

وقد جاءت هذه المسرحية متفردة أسلوبا ولغة وحبكا وأداء، وعن فرادتها ونجاحها يتحدث العلامة سعد الدين بن أبي شنب - بعد سنوات قليلة من ظهورها - فيقول: " فهذا أحمد توفيق المدني قد أخرج للمسرح منذ سنتين أو ثلاث سنين مأساة عنوانها حنبل، قد كتب لها نجاح باهر، سواء في نشرها وفي تمثيلها، ولا غرو فقد كانت ذات قيمة فنية، وجمال وقوة ... " ¹. ويمكن أن نذكر في هذا السياق كذلك مسرحية " الصحراء " لمؤلفها محمد الطاهر فضلاء، وهي مسرحية تصور نضال الشعب الليبي بقيادة عمر المختار ضد المحتل الإيطالي.

3.1.3 المصدر الأجنبي:

و هذا المصدر دعت إليه الحاجة الفنية فحين " تنوع الجمهور، وتنوعت أذواقه، بدأ المسرح الجزائري الإصلاحي بالخروج عن المصدرين السابقين - العربي الإسلامي والمغاربي- إلى مجال الاقتباس من الأعمال الأجنبية ... وتم اختيار المواضيع والمسرحيات الأجنبية بشروط، منها أن تخدم هذه العروض الخطوط العريضة التي سطرها الحركة الإصلاحية، وهي تربية الناشئة على المبادئ والقيم التربوية والثورية، فلا يأخذون منها إلا ما ينسجم مع ماضيها وتاريخها وحضارتها وعقيدتنا وقوميتنا " ².

وفي هذا السياق يمكن الاستشهاد بعناوين العديد من المسرحيات و " أول عمل مسرحي حدث فيه الاقتباس من المسرح الأجنبي هو مسرحية "مونيصرات" التي اقتبسها فراح محمد سنة 1947 من المؤلف "إيمانويل روبلس" تعالج هذه المسرحية حدثا تاريخيا يدور حول الغزو الإسباني لأمريكا اللاتينية، ويفضح فيها الممارسات الوحشية التي كان يمارسها الجنود الإسبان على السكان الأصليين، كما يظهر المقاومة الكبيرة التي أبداه هؤلاء السكان في التصدي لهذا الغزو، إن هذه المسرحية تحمل دلالات سياسية واضحة، دفعت السلطات الفرنسية إلى توقيف العرض " ³.

ويعدّ محمد الطاهر فضلاء من أحسن من برع في اقتباس المسرحيات الأجنبية وإعادة طبعها بطابع خاص يراعي أهداف ومرامي الجمعية التربوية ويسعى إلى الارتفاع بالذوق العام لجمهور المتلقين كما يستغلّها في " تثبيت بعض المبادئ ومحاربة ظواهر سلبية في المجتمع الجزائري، فقد أخذ المسرحية التاريخية " سيرانو دو بيرجرانك " من قصة الكاتب الفرنسي روستان المعنونة ب (الشاعر البطل)، هذه الشخصية التاريخية التي عرفت بالشجاعة والتسامح، والفروسية النبيلة، رغم عيبه الخلفي المتمثل في كبر أنفه، لقد استعمل محمد الطاهر فضلاء هذا الإطار التاريخي ليعرّف المتفرّجين على المبادئ التي تصنع الرجل، وهي أخلاقه ونبله وشجاعته لا صفاته الفيزيولوجية " ⁴.

وهكذا تنوعت المصادر التاريخية التي استلهم منها رواد المسرح الإصلاحي منجزاتهم بين الإطار المحلي والعالمي، فكانت كلّها تصب في خدمة الغايات الكبرى والأهداف التربوية والإصلاحية التي سطرها رجال الجمعية وشيوخها منذ تأسيسها أول مرة.

2.3 المرجع الاجتماعي :

يعدّ المجتمع كذلك ركيزة أساسية يلجأ إليه الكتاب المسرحيون ويستقون منه مادتهم، وذلك لما يعتمل فيه من ظواهر ومظاهر مختلفة، سواء كانت سلبية أو إيجابية تتطلب التنويه والمعالجة والتحليل على مستويات مختلفة، وهو ما لجأ إليه بطبيعة الحال الكتاب

¹ سعد الدين بن أبي شنب، اللغة العربية والأدب العربي في الجزائر، مجلّة الأديب، ع1، 1 يناير 1954، ص73.

² دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيا، ص271.

³ المرجع نفسه، ص 272/271، نقلا عن: نور الدين عمرون، مسار المسرح الجزائري إلى سنة 2000، ص111.

⁴ المرجع نفسه، ص272.

المسرحيون من رجال جمعية العلماء، فتصدّوا للآفات الاجتماعية المختلفة التي سادت إبان الفترة الاستعمارية في مسرحياتهم بصبغة فنيّة أدبية، فتعرّضوا لمشاكل اجتماعية مختلفة بنبرة إصلاحية، مثل مشكلة البطالة، آفة شرب الخمر، المظاهر الكاذبة، الشعوذة والسحر... وغيرها، فنشأت بذلك في مسار تطور مسرح الجمعية ما يسمّى بالمسرحية الاجتماعية "وهي نوع يتناول الكتاب من خلالها مواضيع من عمق المجتمع، كيف لا يكتب عنه وهو واحد من أبنائه يتجاوب وينفعل مع محاسنه وينتقد مشكلاته، وهذا ما ينطبق على الأدب الذي يتأثر ويؤثر في المجتمع، فهو مصدر لغته وموضوعاته، وله يكتب محاولا إحداث تغيير إيجابي في مظاهره السلبية، وذلك بنشر العلم والمعرفة والدعوة إلى العدل والإحياء والتضامن وغيرها من القيم..."¹

ومن أحسن من مثّل هذا الاتجاه من كتاب مسرح الإصلاح نجد أحمد رضا حوحو، فهو رائد المسرحية الاجتماعية في الجزائر بامتياز، ويتجلّى ذلك واضحا من خلال عناوين مسرحياته مثل: أدباء المظهر، الواهم، سي عاشور والتمدّن، البخيل وغيرها.

ففي مسرحية "أدباء المظهر" نجده يعالج موضوعا اجتماعيا "يدور حول انصراف الناس عن الأدب الحقيقي الذي يتطلب من صاحبه جهد سنوات طويلة في الدراسة والتحصيل وتعلّقهم، نظرا لطابع السرعة التي يميّز بها العصر بأدب المظهر، وهو ذلك الأدب الذي يتجلّى كما جاء على لسان مراد أحد شخصيات المسرحية (في الملابس، في المشي، في الجلوس)".²

ويقوم كذلك بالتصدي للزيف الاجتماعي ومحاربة المفاهيم المغلوطة من خلال مسرحية "سي عاشور والتمدّن" وهي مسرحية "مقتبسة من مسرحية (الثري النبيل) لموليير وهي ملهارة راقصة على نفس المنوال - الإيمان بالمفاهيم الخاطئة - فبعد تغير مفهومي الأدب والأدباء، جاء هنا دور مفهوم التمدن لدى عاشور، ذلك الريفي الذي قدم إلى المدينة وانبهر بها، فاعتقد أنّ التمدن هو تقليد أهلها في الملابس والمأكل والحفلات وغيرها".³

وهكذا نجد أنّ الظاهرة الاجتماعية قد شكّلت بدورها مادة خصبة نهل منها الكتاب المسرحيون موضوعات مسرحياتهم، حيث تمّ ذلك وفق معالجة فنيّة ذات صبغة إصلاحية تربوية .

4. أهدافه:

سبق وأن أشرنا إلى أنّ مسرح الجمعية كان مسرحا إصلاحيا، فقد حملت مضامين منجزاته أهدافا تربوية تتماشى والغايات الكبرى لمشروع الجمعية الثقافي، فنشط هذا النوع من المسرح نشاطا واسعا وكان "الهدف منه إرجاع الشخصية العربية الإسلامية إلى مصادرها، ومنابعها الأصلية، هذا النشاط مسّ الجوانب الأدبية والفنية، وأخضعها لمقاييس حددتها أبعاد الحركة الإصلاحية، ولكنّ الشيء الذي ميّز هذا النشاط الإصلاحي هو اهتمام علمائها بالمسرح، واتخاذ وسيلة تربوية ناجعة لمخاطبة المتلقي الجزائري".⁴

¹ سميرة بن جامع، التجربة المسرحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 55.

² أحمد منور، مسرح أحمد رضا حوحو (دراسة أدبية تحليلية مقارنة)، ص 59.

³ سميرة بن جامع، المرجع السابق، ص 60.

⁴ دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيا، ص 265.

فمعلوم أنّ المستعمر الفرنسي انتهج في الجزائر جملة سياسات حاول من خلالها محو الهوية الجزائرية والعبث بمقوماتها من خلال التّجنيس والتّنصير والفرنسة، فقامت الحركة الإصلاحية بالوقوف في وجه هذه السياسات والتّصدّي لها " وما كان أمام الكاتب المسرحي سوى أن يتمسك بشخصيته العربيّة أمام المستعمر " ¹.

إنّ المتأمل لمنجزات هذا المسرح يلاحظ منذ أول نظرة أنّه يستهدف التّربية والتّعليم والتّثقيف والإصلاح، هذه الغايات السامية التي دعت إليها الحاجة الملحة في ظلّ استعمار غاشم كان يستهدف مقومات الهوية بالدرجة الأولى راميا مسخها وتذويبها، وإذا تتبعنا مسار " الحركة الإصلاحية منذ نشأتها، نلاحظ أنّ موقفها من المسرح نابع من سياستها، ومبادئها التي بنيت عليها، وهي المحافظة على الدّين، وإحيائه في النّفوس، بعث اللغة العربيّة، الاعتزاز بالوطن، ونشر الأخلاق السامية، فكلّ ما يتناقض مع هذه المبادئ مرفوض... " ².

ولأنّ اللّغة العربيّة هي عنوان هوية الأمة الجزائرية ولسانها المعبر عن حالها، فقد رام المستعمر الفرنسي القضاء عليها وتشويهها، وحاربها بصنوف شتى ولذلك سعى أعلام المسرح الإصلاحي من كتّاب الجمعية إلى " جعل المسرح وسيلة لإحياء اللّغة العربيّة، والابتعاد على العامية المسوخة، وقد ذكر هذا الشّروط في رسالة بعث بها الأستاذ " الهاشمي التيجاني " أحد محرّري جريدة البصائر إلى محمد الطاهر فضلاء جاء فيها: " أقدمت بشجاعة على اقتحام العقبة ... بمحاولتك المشكورة في إحياء لغتنا العزيرة على أحشاب المسرح، ونبذ تلك الطمطائية المسوخة التي تشوب لغة الأمة الجزائرية " ³.

فالأستاذ محمّد الطاهر فضلاء اعتبر من أهمّ المدافعين عن الكتابة المسرحيّة باللّغة العربيّة الفصيحة، فهي عنوان هوية الأمة وعنوان مجدها، بل إنّه عدّ من أكثر المتعصبين لها، حيث يقول: " ومن مشاكل المسرح المفتعلة قضية ما أسموه اللّغة المسرحيّة، هذه مشكلة خلقها الاستعمار وأكدها الجهل، لا في الجزائر فقط، ولكن في كلّ وطن نكب باستعمار أوربي حاقد على الإسلام ولغته وحاقد على اللّغة العربيّة التي أشعّت الثّقافة والحضارة على يدها قرونا متطاولة من الزّمن... " ⁴.

فمسألة اللّغة في المسرح شكّلت قضية محورية جدلية في الكتابة المسرحية إبان الفترة الاستعمارية، ففي الوقت الذي راح فيه العديد من رواد المسرح الجزائري يكتبون مسرحيات ذات طابع اجتماعي فكاهي بلغة عاميّة، حرص أعلام الجمعية على كتابة مسرحياتهم بلغة عربية فصيحة.

وعموما يمكن تلخيص أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في التّقاط التالية:

- إحياء الشّخصية العربيّة الإسلامية.
- إحياء التّاريخ القومي العربي الإسلامي.
- محاربة الآفات الاجتماعية التي زرعتها الاستعمار.
- الحفاظ على مقومات الهوية خاصّة اللغة العربيّة والارتقاء بالذوق العام لجمهور المتلقين.

¹ سيّد علي إسماعيل، أثر التّراث العربي في المسرح المصري المعاصر، مؤسّسة هنداي سي أي سي، المملكة المتّحدة، دط، 2017/01/26، ص40.

² دين الهناني أحمد، المرجع السّابق، ص 265.

³ المرجع نفسه، ص 267.

⁴ مخناش فؤاد، طبيعة النصّ المسرحي الإذاعي بالجزائر محمّد الطاهر فضلاء أنموذجا، رسالة ماجستير، جامعة وهران 1 (أحمد بن بلّة)، كليّة الآداب والفنون، قسم الفنون، 2014-2015، ص130. نقلا عن: محمّد الطاهر فضلاء، المسرح تاريخا ... ونضالا، ص40.

5. خاتمة:

يمكننا أن نوجز أهمّ النتائج التي توصلنا إليها في مقالنا هذا فيما يلي:

- بدأ مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إصلاحيًا مقاوما من خلال مسرحية "بلال بن رباح" الصادرة سنة 1938م، لمحمد العيد آل خليفة، والتي اعتبرت النواة الأولى لهذا المسرح باستلهاها للتاريخ العربي الإسلامي.
- كانت الغاية التربوية الإصلاحية أبرز مرامي مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فاستلهم روادها مادّتهم المسرحية من مرجعين هامّين هما: المرجع التاريخي من خلال اقتباس سيرة شخصيات بارزة أو أحداث تاريخية مفصّلة من ثلاث مصادر هي: المصدر العربي الإسلامي، المصدر المغاربي، المصدر الأجنبي، إضافة إلى المرجع الاجتماعي كون هذا المسرح حمل على عاتقه مهمة تغيير العديد من الانحرافات والآفات التي عبثت بالمجتمع الجزائري والتي عمد المحتلّ الفرنسي إلى استئثارها وتغذيتها كشراب الخمر، والبطالة والسحر والشعوذة وغيرها من صنوف البدع والخرافات.
- أخضع أعلام مسرح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تجاربهم المسرحية إلى مقاييس حدّدتها أبعديّات وأهداف الحركة الإصلاحية، التي كانت ترمي إلى المحافظة على مقوّمات الأمة من التحريف والتزييف والطمس، فعمدت إلى إحياء الشخصية العربية ورسم النماذج المثالية المشرقة قصد الاقتداء بها، وإحياء التاريخ القومي العربي الإسلامي، والدعوة إلى المقاومة والكفاح بطريقة جمالية فنية.

6. قائمة المراجع:

المراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ج 10، طبعة خاصة، 2007.
- 2- أحسن تليلاني، توظيف التراث في المسرح الجزائري، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري - قسنطينة-، 2010/2009.
- 3- أحمد منور، مسرح أحمد رضا حوحو (دراسة أدبية تحليلية مقارنة)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1989.
- 4- بن داود أحمد، دور المسرح الجزائري في المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي 1926-1954، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2008-2009.
- 5- جميل حمداوي، توظيف التراث في المسرح العربي، دار الزيف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور - تطوان، المملكة المغربية، ط1، 2019.
- 6- سميرة بن جامع، التجربة المسرحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 1، 2020/2019.
- 7- سيد علي إسماعيل، أثر التراث العربي في المسرح المصري المعاصر، مؤسسة هندواي سي آي سي، المملكة المتحدة، دط، 2017/01/26.
- 8- مخناش فؤاد، طبيعة النص المسرحي الإذاعي بالجزائر محمد الطاهر فضلاء أنموذجا، رسالة ماجستير، جامعة وهران1(أحمد بن بلّة)، كلية الآداب والفنون، قسم الفنون، 2014-2015.

المقالات:

- 1- دين الهناني أحمد، المسرح عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مقارنة تاريخية لتوظيف التراث التاريخي مسرحيًا، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، ألمانيا، العدد 4، جانفي 2019.
- 2- سعد الدين بن أبي شنب، اللغة العربية والأدب العربي في الجزائر، مجلة الأديب، ع1، 1 يناير 1954.
- 3- مباركة مسعودي، المسرح الجزائري: التأسيس والزيادة، مجلة البدر، المجلد9، العدد12، 2017.